دراسة تحليليّة لآراء النقّاد المعاصرين حول آراء ابن سلّام النقديّة

أ.م.د. عبدالله حسينى

جامعة فرهنگيان/ طهران/ إيران

An analytical study of contemporary critics' views on Ibn Salam's critical views

Ass. Prof. Dr. Abdullah Hosny

University of Farhangian\ Tehran\ Iran

dr.hosseinyiran@gmail.com

الملخّص:

فى تاريخ النقد الأدبىّ الحديث ستّة كتب حسب تاريج الظهور تتناول النقد بالتأريخ والمناقشة وكان طبيعيّا لهذه الكتب الستة ان تتعرّض لمحمّد بن سلّام.

يهدف هذا المقال عن استخلاص الآراء النقدية التى قيلت فى هذه الكتب الستة عن ابن سلام وما أخذ عليه من النقد، ومن ثمّ تحليل ما تتناوله هذه الكتب بالنقد والمناقشة، ومن أهمّ النتائج التى توصّل اليها هذا المقال:

إنّ ابن سلّام لم ينل من قبل النقّاد المعاصرين ما وجب أن يناله، لم يتعرّض احمد امين كثيرا لابن سلّام وكذا لانجد دراسة له عند طه الحاجرى. غير انّ محمد الغمراوى لقد انصاف لابن سلّام ويقدّم منهجه اساسا على عقد مقارنة بين كتاب طبقات الشعراء وكتاب فى الأدب الجاهلى لطه حسين.

الكلمات المفتاحية: الأدب العربى، تاريخ النقد الأدبى، ابن سلّام الجمحىّ، طبقات الشعراء.

١- المقدمة:

محمّد بن سلّام الجمحىّ من علماء أواخر القرن الثانى من الهجرة وأوائل الثالث، أحد الاخباريين والرواة، نحوىّ ولغوىّ، وهو يُعدّ احد كبار نقدة الشعر، الّف كتابا او كتابين فى طبقات الشعراء. مات سنة ٢٣١ هـ. لقد رأينا اللغويين تكلّموا كثيرا فى جمال الشعر الفنى وفى مذاهب الشعراء وفى منازل بعض منهم وفى الأشعار التى تُستند الى غير قائليها وفى النظر الى الأدب نظرات متّصلة ببيئته وصاحبه او الحالة الاجتماعية التى نشأ فيها، وابن سلّام خاض فى ذلك كلّه وتعرّض لكثير من الشعر والشعراء بالنقد والحكم. اذا كان الأدباء قد اكتفوا بملحوظات فى النقد، واللغويين قد تعمّقوا فى الفهم والتحليل، فانّ ابن سلام قد درس الأدب وبحث المسائل الأدبيّة وكان اوّل من نصّ على الإستقلال النقد الأدبى فافرد الناقد بدور خاص حين جعل الشعر صناعة يتقنها أهل العلم بها، مثلما انّ الناقد الدرهم والدينار يعرف صحيحهما من زائفهما بالمعاينة والنظر. (الزركلى، ٢٠٠٧: ٦/ ١٤٦. ابن نديم،١٣٤٣هـ ق: ١١٣. الصفدى، ١٩٦٢: ٣ /١١٤. احسان عباس: ٧٨)

١-١ اسئلة البحث:

- كيف ينظر النقّاد الحديث الى ابن سلّام وآرائه النقدية؟
- هل نال ابن سلام ما وجب ان يناله من النقد والإهتمام من قبل النقّاد الحديث؟

١-٢ ضرورة البحث:

ابن سلّام ومقامه كصاحب اوّل اثر نقدىّ منهجىّ وصل الينا ممّا الّفه العرب فى النقد والأدب، بحقّه ان يُقّدم من قِبل النقّاد الحديث الى محكمة نقدية علمية شاملة تسلّط الضوء على دوره فى تاريخ النقد الأدبى. كما ينبغى تحليل ما أخذ عليه النقّاد الحديث بالنقد والمناقشه.

١-٣ منهج البحث:

والمقال من حيث المنهج فقد طبّق المنهج التحليلى التطبيقى والمنهج الإستقرائى من خلال تسليط الضوء على الآراء التى قيلت فى النقد الادبى الحديث عن ابن سلّام.

١-٤ خلفيّة البحث:

أمّا بالنسبة الى الدراسات السابقة لهذا الموضوع رغم انّه كثيرا ما كتب عن ابن سلّام وآرائه النقدية فى تاريخ النقد الادبى الحديث، لم يحظ تحليل ما تناول النقاد الحديث عن آراء ابن سلام النقدية بدراسة نقدية مستقلة فيها تستوعب جوانب مختلفة من آرائه النقدية، وانّما نجد مباحث مبعثرّة فى الكتب الادبية لا تتجاوز صفحة او صفحات قليلة من المعاصرين.

٢ – اصل البحث:

فى تاريخ النقد الادبىّ الحديث ستّة كتب حسب تاريج الظهور تناول النقد بالتأريخ والمناقشة وكان طبيعيّا أن تتعرّض هذه الكتب الى ابن سلّام:

٢-١ تاريخ النقد الادبى عند العرب من العصر الجاهلى الى القرن الرابع الهجرى لطه احمد ابراهيم:

يفرد طه احمد ابراهيم بحثا خاصّا لابن سلّام، لأنّه:

- اوّل من نظم البحث فى الأفكار التى سابقته وعاصرته وعرف كيف يعرضها وكيف يبرهن عليها ويستنبط منها حقائق ادبيّة فى كتابه طبقات الشعراء.
- شارك معاصريه فى كثير من الأفكار ولكنّه محّصها وأضاف اليها وصبغها بصبغة البحث العلمىّ وسلكها فى كتاب خاصّ هو خلاصة ما قيل الى عهده فى الأشعار الجاهليّة والإسلاميّة، زاد على ما قال معاصروه فى النقد الفنى وفى الأدب.
- أودع كلّ المعارف فى النقد كتابا لعلّه اسبق الكتب فى ذلك، أودعها على طريقة العلماء وفى عرف منطقىّ قويم.
- أفسح ميادين النقد وهو بذلك أوّل المؤلّفين فيه. (طه احمد ابراهيم، ١٤٠٨ هـ ق: ٧٤)

وممّا كتبه طه أحمد ابراهيم عن ابن سلّام ولاحظه فى كتاب " طبقات الشعراء ":

أ- يعتقد انّ كتاب طبقات الشعراء كتابان، أحدهما طبقات فحول الشعراء الجاهليين والآخر طبقات فحول الشعراء الإسلاميين، وهذا ما يذهب اليه جورجى زيدان. (جورجى زيدان،١٩٨٢:٢/١٢٣) لأنّ:

- إضطراب المقدمة وما فيها من خلط تشعر بانّها كانت مقدّمتين اُدمجت احداهما فى الأخرى، ثمّ انّ روح ابن سلّام فى طبقات الجاهليّة قويّة عميقة منصرفة أو تكاد الى ما هو من صميم النقد، فامّا طبقاته فى الإسلاميين فيكثر فيها التاريخ عن جماعة – كجرير والفرزدق والأخطل– وتقلّ فيها روح العلم وفى المقدمة نفسها ما يدلّ على انّ ابن سلّام الّف اوّلا طبقات الجاهليين وهو الراجح.
- انّ اكثر ما كان يكتب الى عهد ابن سلّام بحوث صغيرة ورسائل لا كتب وليس بعيدا أن يكتب ابن سلّام بحثا فى طبقات الجاهليين ثم يثنيه بآخر فى طبقات الإسلاميين. (طه احمد ابراهيم، ١٤٠٨ هـ ق: ٨٠)

لكن هناك من يعتقد انّ اسم الكتاب طبقات الشعراء وليس طبقات فحول الشعراء. (البغدادى، ١٩٣١هـ: ٥ /٣٢٧. ابن رشيق، ١٩٥٥ م: ١ /٥٤. الانبارى،١٢٩٦: ٢١٦. الحموى،١٩٣٦: ١٨/٢٠٤. العسقلانى،١٣٢٩: ٣ /٦. السيوطى، ١٢٨٥هـ: ٢ / ٤٥)

ب- يعرض لاضطراب وضع ابن سلّام بعض الشعراء فى الطبقات التى هيأها لهم ويعترض على وضع كعب فى الطبقة الثانية وأصحاب المعلّقات فى الطبقات الرابعة وتقديم شعراء فى الطبقة الخامسة على شعراء اكثر منهم نباهة وشهرة وهم: عمرو بن كلثوم والحارث بن الحلزة وعنترة وسويد بن ابى كاهل اليشكرى.

ثمّ يعلّل طه احمد ابراهيم ويوضح هذا الإضطراب حيث يقول: " ليس من الرأى فى شىء أن يكون الشعراء عشر طبقات وليس ممكن بحال من الفروق بين الشعراء ما يمهّد لنا أن نوزّعهم على طبقات عشر والخصائص الفنيّة رقيقة متموّجة لا تطيع الباحث الى مثل هذا المدى ". (طه احمد ابراهيم، ١٤٠٨ هـ ق:٨١)

ج- اعترض عليه بانّه لم يتعرّض لمكانة شعراء القرى ولم يذكر لنا منزلة شاعر كبير كحسّان، هذا الى انّه أهمل بعض فحول الشعراء كعمر بن ابى ربيعة والطرماح بن حكيم والكميت الأسدى ومكانتهم لا تنكر فى الشعراء الإسلاميين.

د- يعتقد انّ ملكة ابن سلّام الأدبيّة فى تحليل الشعر وتذوّقه لا تكاد تظهر فيما كتب، ملكته الأدبية أضعف بكثير من ملكته العلمية وكان لنا أن ننتظر من ابن سلّام تحليلا للشعر فسيحا عميقا يلائم انفساح النقد فى الميادين الأخرى ولكنّنا لا نجده يتقدّم فى تذوق الأدب خطوة عن الذين عاصروه او سبقوه، بل لقد نرى له أحيانا كلاما عامّا لا يحدّد ذوقا خاصّا ولا يشعر بتفهّم النصوص على النحو المقنع وقلّما نظفر بشئ دقيق حين نتتبع آراء ابن سلّام فيما يتصل بالشعر. (المصدر نفسه: ٨٣ . ٨٤)

ربّما يعنى طه احمد ابراهيم بملكة ابن سلّام العلمية طريقة وضعه الشعراء فى طبقات عشر وجعل كل طبقة اربعة شعراء وطريقة عباراته الدقيقة وعرضه للشعراء وتقصّيه للمعنى الذى يريده حتى يصل واضحا الى القارئ مع سلامة وجزالة.

امّا عن ضعف ملكته الأدبية فلعلّ طه أحمدابراهيم قصد بها الى انّ ابن سلّام لم يتدخّل بذوقه الخاصّ فى اختيار الأشعار، ولكنّنا قد رأيناه قد تحلّل من المبدأ الذى فرضه على نفسه فى ترتيب الشعراء الطبقات فجعل طبقة لشعراء القرى وأخرى لأصحاب المراثى وثالثة لشعراء اليهود ورابعة للرجاز وخامسة للمشبّبين، وعلى أساس التشابه الفنى لا الشكلى. (منير سلطان،١٩٨٦م: ٢٨)

وقد رأينا ابن سلّام يوازن بين شاعر وشاعر ويفضّل احدهما على الآخر، ورأيناه يوازن بين الأبيات المنفردة والقصائد المطوّلة، ويلاحظ الفروق الدقيقة بين النسيب والتغزّل ويفرّق بين جميل وكثيّر.

هـ- يعتقد ابن سلّام انّ فى الشعر الجاهلى مصنوع مفتعل موضوع لا خير فيه. (الجمحىّ، ١٩٧٤: ٤). فإذا ادّعى ابن سلّام انّ هناك شعرا موضوعا برهن على تلك الدعوة وتلمّس أسباب وضع هذا الشعر والبواعث التى حملت الناس الى أن يضيفوا الى الجاهليين ما لم يقولوه وهو يرجع ذلك الى سببين:

- العصبية فى العصر الإسلامى وحرص كثير من القبائل على أن تضيف لأسلافها ضروبا من المكانة والمجد.
- الرواة وزيادتهم فى الأشعار، ولم يذكر ابن سلّام ما حملهم على ذلك ولكنّه يكتفى بذكر مثالين للرواة المتزيّدين: داود بن متمّم وحمّاد الراوية، الذى كان ينحل شعر الرجل غيره ويزيد فى الأشعار فى كثير من المواضع. (طه احمد ابراهيم، ١٤٠٨م:٧٧)

وقد المّ علماء القرن الثانى بقضيّة الرواة المتزيّدين. (البغدادى، ١٩٣١:٣٧٧. الإصفهانى، ١٩٥٨: ٥ /٤٧. المرزبانى ١٣٨٥:٣٧. الأصمعى١٩٥٣:٢٢)، ولكن ابن سلّام استطاع أن يعرضها عرضا طيّبا ويحدّد اسبابها، بل ويقدّم العلاج الذى يراه ناجعا.

لكن بالرغم من تحرّى ابن سلّام وتحرّزه واجتهاده فى تخليص الشعر الصحيح فقد انطلى عليه بعض زيف النقلة مثل ما نسب الى يعصر او سعد ومالك ابنى زيد مناة. (زغلول سعد، ٢٠٠٠م: ١٠٣)

هنا سؤال يطرح نفسه، هل نال عرض ابن سلّام لقضيّة الشعر المصنوع من قِبل النقّاد ما يجب أن يناله؟ لقد قمت فى ميدان المعركة والنقد وحصلت على النتائج التالية:

- تحت رأية القرآن لمصطفى صادق الرافعى: فى هذا الكتاب شتائم وقذائف وسباب على الرغم من المعلومات القيّمة، وذلك لانّ ابن سلام أُستخدم وسيلة لتوكيد ادّعاء طه حسين وإستغلاله أقوال أبن سلّام لمصلحته فى الظهور بمظهر المفكر المبتدع.

- نقض كتاب فى الشعر الجاهلى لمحمّد الخضرى الحسين: لم يقدّم لنا هذا الكتاب شيئا يذكر عن ابن سلّام وآرائه النقديّة حول الشعر الجاهلى.
- نقد كتاب فى الشعر الجاهلى لمحمّد فريد وجدى: لقد رجع الى ابن سلام مرّة فى ص ٦ واخرى فى ص ١٠١ ولم يناقش موقف ابن سلام ولم يحلّل مجهوده.
- الأدب العربى وتاريخه لمحمّد هاشم عطيّة: حاول أن يعطى ابن سلّام حقّه ولكنّه عمّم عبارته وجعلها تحلق فى سماء المعركة ولم تتدخّل فى التفاصيل، شاهدا بأنّ خير ما وضع فى ذلك الوقت –العصر العباسى _ طبقات الشعراء لابن سلّام الجمحىّ وقد أتى فى صدره على أهمّ النظريات الأدبيّة التى اتّخذها المتأدّبون أمامهم فى البحث ويفصّلون إجمالها ويطولون فيها وهم يظلمون الناس حين يزعمون أنّهم يأتون بشىء جديد فى الأدب.
- النقد التحليلى لكتاب فى الادب العربى لمحمّد احمد الغمراوى بمقدمته التى كتبها الأمير شكيب ارسلان: لقد انصاف لابن سلّام ويقدّم منهجه اساسا على عقد مقارنة بين كتاب طبقات الشعراء لابن سلّام وكتاب فى الأدب الجاهلى لطه حسين، وحلّل دور ابن سلّام فى هذه المعركة وسلّط عليه الأضواء معطيا إيّاه حقّه ولم يجنح للسبّ والطعن ولم ينابز بالألقاب ولكن فى أسلوب علميّ دقيق وعرض تحليليّ واضح.

٢-٢ النقد الادبى لأحمد امين:

الكتاب الثانى حسب الظهور فى تاريخ النقد الأدبى الحديث هو كتاب احمد امين، فبعد ان يتحدّث فى جزئه الأول عن النقد فى اوربّا وتطوّره ومدارسه، يتطرّق فى جزئه الثانى الخاص بالنقد الادب العربى الى ابن سلّام حيث يقول:

"ولعلّ اقدم ما وصل الينا من كتب النقد كتاب طبقات الشعراء لمحمّد ابن سلّام الجمحى المتوفى ٢٣١ هـ وهو ايضا بصرىّ، كانت له معارف واسعة فى اللغة والأدب والنحو والاخبار حصّلها على عصره.... ثمّ يقول: وكان دقيقا فى تعليله انّ الشعر ليس كثيرا فى مكة لانّه على تعبير اليوم لم يكن بها بواعث تهيج العاطفة وهو تعليل كما ترى دقيق وكان من مميزاته محاولة ترتيب الشعراء وجعلهم طبقات". (احمد امين،١٩١٣م: ٤٣٨)

كان هذا نصيب ابن سلّام فى كتاب احمد امين، لم يحلّل مجهوده ولم يتطرّق الى آرائه النقديّه، غير انّه يشهد لابن سلّام محاولة تعليل قلّة وجود شعر فى بيئة كمكة وكثرته فى بيئة اخرى كالمدينة، وكان ينبغى لناقد كأحمد امين أن يتطرّق الى ابن سلّام وآرائه النقديّة اكثر من هذا النصيب القليل.

٢- ٣ فى تاريخ النقد والمذاهب الأدبيّة لطه الحاجرى:

لم نجد فى هذا الكتاب الثالث حسب الظهور تاريخيّا، دراسة مستقلّة ومستوعبة جوانب مختلفة لآراء ابن سلّام النقديّة، واقتصر على الإستشهاد من الكتاب فقط، بعيدا عن دراسته والتعريف بصاحبه.

٢-٤ دراسات فى نقد الأدب العربى من الجاهلية الى نهاية القرن الثالث لبدوى احمد طبانة: اذا انشغل كتاب طه الحاجرى عن ابن سلّام بأشياء اخرى وقدّم لنا احمد امين لمحة خاطفة عن ابن سلّام وميزته، فانّ بدوى احمد طبانة قد عرض لنا فى الفصل الرابع ابن سلّام وكتابه فى اسلوب بسيط ومن تقديم دقيق ونقد رفيق. يمكن ان نلخّصها كلآتى:

أ- يعتقد بدوى احمد طبانة انّ كتاب طبقات الشعراء كتابان احدهما فى طبقات الشعراء الجاهليين والثانى فى طبقات الشعراء الإسلاميين، لانّ ابن سلّام يقول: " فنقلنا ذلك الكلام فى الشعر وقول العلماء فيه الى خلف ابن حيّان ابى محرز الأحمر اجمع اصحابنا انّه كان افرس الناس ببيت شعر واصدقهم لسانا،كنّا لانبالى اذا اخذنا عنه خبرا أو انشدنا شعرا الّا نسمعه من صاحبه". (ابن سلّام، ١٩٧٤: ١٢٩) لم يذكر ابن سلّام لنا شيئا عن جواب خلف الأحمر أو تعليقه على تلك الأقوال التى نقلت اليه وسياق الحديث يشعر بانّه كان له رأى وانّه كان له تعقيب والّا كان كلام ابن سلّام عبثا ولغوا ولا طائل وراءه. (بدوى احمد طبانة: ١٩٦٠م: ١٢٦. ابن نديم، چاپ دوم: ١٠٥)

ب- هو اوّل من قرّر انّ اوّل الشعر بيت وبيتان، وانّ القصائد طوّلت على عهد عبد المطلب وهشام بن عبد مناف.

تبدو آراء ابن سلام فى هذا الشأن على قدر من الإضطراب، فبعد ان بيّن انّ تقصيد الشعر انّما كان على عهد عبد المطلب وهاشم بن عبد مناف بما اغدقا على الشعراء المدّاحين عاد فقدّم تصوّرا مختلفا لهذا الامر اذ جعل الرثاء الذى ينشأ عن الوقائع والثأرات والدماء مبعثا لتقصيد القصيد واطالة الشعر. (العاكوب،١٤٢١هـ: ١١٣- ١١٤. منيف موسى ١٤٠٥هـ: ٤٦)

ج- تنبّه ابن سلّام الى بعض العوامل الفعالّة التى تدفع الشعراء الى النظم وفى مقدمتها الحروب.

يتفقّه فى هذا الموضوع ابن رشيق حيث يقول: " وكان الكلام كلّه منثورا فاحتاجت العرب الى الغناء بمكارم اخلاقها وطيب أعراقها وذكر أيّامها الصالحة وأوطانها النازحة وفرسانها الأنجاد وسمحائها الأجواد لتهزّ أنفسها الى الكرم وتدلّ ابنائها على حسن الشيم فتوهّموا أعاريض جعلوها موازين الكلام فلمّا تمّ له وزنه سمّوه شعرا لانّهم شعروا به، اى: فطنوا". (ابن رشيق، ١٩٦٨م: ١ /٢٠)

انتبه الجاحظ فيما بعد الى هذه الفكرة لكنّه ردّ مذهب ابن سلّام فى هذا الشأن وينفى ارتباط الشعر بعوامل تقع خارج نفس الإنسان وجبلّته ككثرة الحروب ومغالبة الأعداء أو خصوبة المكان وطيب الغذاء أو السكنى والإستقرار، بل يرى انّ الشعر حظّ يقسمه الله لمن شاء من عباده. (الجاحظ، ١٩٦٩م: ٤ /٣٨٠ - ٣٨١)

د- حديثه عن تنقّل الشعر فى القبائل، إنتبه ابن سلّام إلى قضيّة ذات شأن تتّصل بتاريخ الشعر العربى وهى أنّ هذا الشعر قد تنقل فى قبائل العرب فكان شعر الجاهلية فى ربيعة ثم فى قيس ثم آل بعد ذلك الى تميم وذكر علة بدء الشعر فى ربيعة وأوّلهم المهلهل الذى كان أوّل من قصّد القصائد وذكر المواقع فى قتل أخيه كليب.

هـ- يعتقد انّ الكتاب أقدم وثائق النقد المدوّنة، فيه كثير من آراء الأدباء واللغويين التى انتفع فيها فيما بعد من كتبوا فى نقد الأدب أو فى سير الشعراء، كالآمدى صاحب الموازنة بين الطايين وابى فرج الإصفهانى صاحب كتاب الأغانى، وحسب كتاب ابن سلّام أن يكون جمّاع القول فى الشعر العربى فى الجاهلية والإسلام.

و- ينتقد بدوى أحمد طبانة ابن سلّام ويلحظ عليه عدم ذكره للشعراء الذين عاصروه كمروان ابن أبى حفصة وأبى نواس وبشّار ومسلم بن الوليد وأبى تمّام، ثمّ يقترح عذرا له بدلائل:

- انّ الشعراء الذين عاصرهم ابن سلّام لم تكن الأقوال فيهم قد تبلورت بعد، بحيث يعتمد عليها.
- لعلّ اولئك العلماء كانوا يخشون ممّا قد ينالهم من اولئك الشعراء من الهجاء المقذع اذا عرضوا لشعرهم بالنقد والتحليل والإشارة الى موارد الضعف فيه.
- انّ طبقة العلماء ومعاصرى ابن سلّام والسابقين له يعتبرون انّ العصر الذهبى للّغة والشعر هو الجاهلية وصدر الإسلام مع العصر الأموى، وشعراؤهم قادة الشعر وقولهم هو المنبع والمصدر والشعراء بعدهم عيال عليهم. (بدوى احمد طبانة،١٩٦٠م: ١٢٦- ١٤٣)

٢-٥ النقد المنهجى عند العرب لمحمّد مندور:

يحدّثنا محمّد مندور عن الأطر الكبيرة التى اتّخذها ابن سلّام هيكلا له فى تقسيمه الشعر كنظرته اليه من حيث الزمان والمكان والفنّ الأدبى، ثم يتحدّث عن فطنة ابن سلّام الى كثير من الشروط التى يجب أن تتوافر فى الناقد مثل الدربة والممارسة والذوق الأدبى، وكذا انتباه ابن سلّام الى ضرورة صحّة النصوص وصحة نسبتها، يقول: " ولا تقف الروح العلميّة عن ابن سلّام عند ملاحظة تلك الظواهر، بل تمتدّ الى تفسيرها حتى لنراه يفصّل الأدلّة العقليّة والنقليّة على انتحال الشعر، كما اتّضح عند تفسيره الظواهر الأدبيّة كقلّة الشعر فى أماكن دون أماكن ثمّ قياس أساس المفاضلة على الكثرة والجودة ". (مندور، ١٩٦٦: ١٩)

ما أخذ محمّد مندور على ابن سلّام، والردّ عليه:

أ - ينتقده فى تفضيله الكثرة على الجودة، يقول: " واما عن تفضيله الكثرة على الجودة وتعدّد الأغراض الشعريّة ففى ظنّنا انّه من الواضح انّ الكم ليس مقياسا صحيحا لقيم الشعراء ". (المصدر نفسه: ١٨ - ٢٠)

يمكن الردّ عليه بأنّ ابن سلّام كان يقصد الكثرة الجيّدة من الشعر او الجيّد الكثير منه لا يفرق بين كميّة الشعر وكيفيّته، لأنّ الشاعر الحقّ هو كثير الشعر جيّده، لا كثيره وغثّه ولا جيّده وقليلة، وابن سلّام مع تصويره لهذا المبدأ لا يظلم الشاعر قليل الشعر وجيده، فهو يعترف بأنّ طرفة وعبيدا وعلقمة وعديّا من الفحول الشعراء وموضعهم مع الأوائل وانّما أخلّ بهم شعرهم بأيدى الرواة. (ابن سلام، ١٩٧٤: ١٣٧)

ب- اذا كان ابن سلّام مصيبا فى نظرته الى إنتحال الشعر فانّه أقلّ اصابة فيما عدا ذلك، فتفسيره لندرة شعر بعض القرى مردود لانّ الشعر ليس كلّه فى الحرب ولا هو قاصر عليها بل انّ فيه مصادرة على المطلوب، فليس بصحيح أنّ الشعر كان نادرا فى مكة مثلا، خصوصا بعد الإسلام. (مندور، ١٩٦٦: ٢١)

يرفض محمد مندور مبدأ تفسير القلّة على اساس الارتباط بالحرب، لكن يجب أن نربط الحرب بالعرب الجاهليين لنفهم طبيعتها والمقصود بها، فالحروب فى الجاهليّه كانت شبه مستمرّة على مستوى الجزيرة العربيّة كلّها، ما بين حىّ وحىّ وقبيلة وقبيلة، وفى الحرب يظهر لون الشعر الحماسىّ لدفع المحاربين الى الجهاد، وفى الحرب تهيج كوامن النفس فتجيش الشاعرية مندفعة بحبّ الشاعر لوطنه وبتقديره لدوره فى مجتمعه.

ج-اسقط ابن سلّام من حسابه لسبب لا نعرفه الكثير من الغزليين وعلى رأسهم عمر بن ابى ربيعة الذى لم يذكره اصلا. (المصدر نفسه: ٢١)

و امّا حكمه على اسقاط ابن سلّام الكثير من الغزليين لا ينطبق على الواقع ونحسبه حكما جائرا، فقد ذكر ابن سلّام كثيّرا وابن قيس الرقيّات والأحوص وجميلا ونصيبا وغيرهم من الغزليين. (ابن سلّام، ١٩٧٤: ٥٤)

ممّا يجب أن يُذكر انّ الروايات مضطربة فى تحديد وفاة عمر بن ابى ربيعة، يقول ابوالفرج انّه عاش سبعين سنة وانّه ولد ليلة قتل عمر بن الحطاب، ومعنى ذلك انّه توفى سنة ٩٣ هـ (ابوالفرج، ١٩٥٨: ٧١/١) اى سنة ٢٣ للهجرة، فى عهد وليد بن عبدالملك، وهناك رواية تزعم انّ سليمان بن عبدالملك (٩٦ – ٩٩) نفاه الى طائف، وأخرى تزعم أنّ عمر بن عبدالعزيز (٩٩ – ١٠١) نفاه ألى دَهلَك (المصدر نفسه: ١٧)

د-انّنا نلاحظ انّه يورد ما يختاره للشعراء المختلفين أو يورد مطالعه ولكنّه لا يحلّله ولا ينقده ولا يظهر فيه من جمال أو قبح، وإن حَكم على بعض القصائد أو بعض الشعراء فأحكامه فى الغالب هى الأحكام التقليدية التى كانت الألسن تتداولها عن السابقين، كقوله عن ابى ذؤيب الهذلى: " انّه شاعر فحل لا غميزة فيه ولا وهن "و عن عبيد بن الحسحاس: " انّه حلو الشعر رقيق حواشى الكلام " وأمثال ذلك مما لا تحديد فيه ولا تفصيل. (مندور، ١٩٦٦: ٢٨، ٣٠، ٣٨)

لكن اذا راجعنا الى ابن سلّام وآرائه النقديّة نجده يوازن بين أقوال الشعراء، وما قام به ليس التحليل ولكنّه الخطوة الاولى للتحليل، ومَن حلّل من النقّاد بعد ابن سلّام اعتمد على أقواله وأقوال غيره من العلماء والنقّاد.

و إذا نظرنا إلى ابن سلّام فى إطار عصره لا نطالبه بأكثر ممّا فعل، كما ليس من الأنصاف آن نطالبه أن يتقدّم بالنقد الأدبى الفنى الى الأمام، لأنّ ابن سلّام قد وضع البنات الاولى للنقد المنهجىّ على اساس علميّه من حيث توجيهه الى تحرير النصوص وتخليص الشعر من الدخيل.

٢-٦ مصادر الشعر الجاهلى وقيمتها التاريخية لناصر الدين الأسد:

فى سنة ١٩٥٦ ظهرت دراسة ناصرالدين الأسد التى توفّر لنا المصادر الأساسيّة فى البحث عن بعض جوانب العصر الجاهلى وكان نصيب ابن سلّام فى هذا المرجع كبيرا.

يقول ناصرالدين الأسد:

" أورد ابن سلّام فى طبقاته قول عمر بن خطّاب، كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصحّ منه ثم عقب عليه بقوله: فجاءالاسلام فتشاغلت عنه العرب وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم ولهت عن الشعر وروايته، فلمّا كثر الشعر وجاءت الفتوح

واطمأنّت العرب بالأمصار راجعوا رواية الشعر فلم يؤولوا الى ديوان مدوّن ولا كتاب مكتوب وألّفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتال فحفظوا اقلّ ذلك وذهب عليهم منهم كثير. كلام ابن سلّام هذا ثلاثة أسطر: آخرها حق، موسطها باطل، وأوّلها يحتاج الى فصل بيان يوضحه، أمّا الحق الذى لا مرية فيه فقوله: فحفظوا أقلّ ذلك وذهب عليهم منه كثير، وامّا الباطل الذى لم نعد نشك فى بطلانه وفساده فهذا هو التعميم الواسع فى قوله: فلم يؤولوا الى ديوان مدوّن ولا كتاب مكتوب ". (الأسد ناصرالدين، ١٩٨٨:١٩٤)

يأتى ناصرالدين الأسد بثلاثة أمثلة من كتاب ابن سلّام تنقض القول الذى ينصّ أنّ العرب لم يؤولوا إلى ديوان مدوّن ولا كتاب مكتوب، لكن حسبنا أن نورد مثالا واحدا فقط:

"فقد عاب ابن سلّام بعض علماء قبله – اى علماءالقرن الأوّل الهجرى– باكتفائهم بالأخذ عن الدواوين المدوّنة والكتب المكتوبة فنبزهم بانّهم صحفيّون، حيث يقول: قد تداوله قوم من كتاب الى كتاب لم يأخذوه عن أهل البادية ولم يعرضوه على العلماء وليس لأحد اذا أجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على إبطال شيء منه أن يقبل من صحفية ولا يروى عن صحفى". (المصدر نفسه: ١٩٤)

و قد قال عقب قوله السابق الذى انكر فبه هذه المدوّنات:

"و قد كان عند النعمان بن منذر منه ديوان فيه اشعار الفحول، وما مُدِحَ هو وأهل بيته به صار ذلك الى بنى مروان او صار منه". (المصدر نفسه: ١٩٥)

اما الشطر الثالث الذى يحتاج الى فصل بيان يوضحه فهو قوله:

" فجاء الاسلام فتشاغلت عنه العرب وتشاغلوا بالجهاد وغزو الفارس والروم ولهت عن الشعر وروايته فلمّا كثر الإسلام وجاءت الفتوح واطمأنت العرب بالأمصار راجعوا رواية الشعر وألّفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل". (المصدر نفسه: ١٩٤)

يقول ناصرالدين الأسد لابدّ لنا أن نتساءل هنا:

– احقّ انّ العرب قد لهوا عن رواية الشعر فى هذه الفترة من حياتهم فغفلوا عنه ونسوا ذكره وأضربوا عن روايته؟

– واذا كان كذلك فكم من السنين او من القرون بلغت هذه الفترة؟

– ثم أ من الحقّ انّهم حين راجعوا روايته اذا سلّمنا بانقطاعهم عنها الّفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل؟ (المصدر نفسه: ١٩٥)

و للإجابة عن هذه الأسئلة لابدّ لنا من استقراء تاريخىّ نتبع فيها حياة الرواية عند القدامى:

اذا ما بدأنا بعهد بنى امية وجدنا انّ بعض القوم آنذاك كان يرى العلماء العارفين بالشعر الجاهلى قد ماتوا ونحن نحسب انّ هذا الضرب من الكلام موجود فى كل عصر وانّه لا يصحّ أن يحمل محملا لفظيّا قاطعا وانّما هو ضرب من التحسّر على الماضى وتمجيد القدماء والإقرار بضعف الحاضر وعجزه اذا ما قيس بالقديم السابق عليه، لمّا استقرّت الحال بهم لم يرجعوا الى ديوان ولا الى كتاب مدوّن، لماذا؟ لانّ الدواوين كانت موجودة والكتب كانت موجودة ولكنّها غير موثوق بها، فالأفضل الرجوع الى الرواة والأعراب والقرّاء، واين هم هل هم فنوا كلهم؟ لا، هلك منهم بالقتل والموت من هلك فحفظوا اقلّ ذلك وذهب عنهم منه كثير.

هذه القضيّة بهذا الشكل تخدم قضيّة ناصرالدين الأسد، لانّه يحاول اثبات انّ التدوين موجود وابن سلّام يقول له: نعم كان موجودا، والرواية ايضا كانت موجودة ولكنّ العرب لم تكن تثق بالمدوّنات، ذلك للتصحيف الذى هيمن عليها ولشدّة ثقتهم بالذاكرة القويّة. والمسألة لها مثيل وهو تدوين المصحف الشريف يقول إبن أثير: " نزّل القرآن منجّما فى بضع وعشرين سنة فلمّا انتقل الرسول – ص– الى جوار ربّه وقامت حروب الردّة وقُتل فيها أكثر القرّاء من الصحابة وخاصّة فى يوم اليمامة حيث قُتل منها زهاء سبعين، هال هذا الأمر عمر بن الخطّاب وكان مستشار ابى بكر وساعِده الأيمن وذهب الى ابى بكر وقال له: انّ القتل قد كثر واستحَرّ بقرّاء القرآن يوم اليمامة وانى أخشى أن يستحرّ القتل بالقرّاء فيذهب من القرآن الكثير وانّى أرى آن تأمر بجمع القرآن، فأمر ابوبكر زيد بن ثابت فجمعه من الرّقاع والعسب وصدور الرجال ". (ابن أثير، ١٣٠١ هـ: ٢ / ٤١. الطبرى: ٢٨٤. البلاذرى، ١٩٦٦ م: ٢٣١) والقضيّة واحدة

لاتختلف سوى فى قدسيّة القرآن واهميّة جمعه وجوهريّته مع ثانويّة جمع الشعر وعدم التزمّت فى التنقيب عنه والجرى وراء مظانّه ومهما دوّناه وسجّلناه فلن نأتى على نهايته.

واذا قلنا انّ الادباء اقتفوا اثر الفقهاء فى الإهتمام بالإسناد واشخاص النقلة للشعر لما ذهبنا بعيدا. (السيوطى،١٣١٦ هـ: ١ / ٥، الرافعى،١٩٤٠م: ١ / ٢٥٩)، ولكنّهم لم يبلغوا فى ذلك .كما يقول احمد امين – مبلغ المحدّثين فى دقة التحرّى والتقصّى لانّ الامر لايصل فى الأدب الى حساسيّته فى الحديث. (احمد امين، ١٩١٣م: ٢ / ٢٥٩ و٣٥٨)

اذا اردنا أن ننقض هذا القول على ابن سلّام فعلينا أن نبحث فى حدود عهد الرسول – ص– ثم عهد الخلفاء الراشدين بعده، حيث كانت الجزيرة فى شغل شاغل عن الشعر وروايته. والأحداث التى نشبت بين كلّ من امام على – ع– ومعاوية كان ميدانها العراق لا الجزيرة العربية، فإلى سنة ٣٠ هـ نبحث عن نقض قضيّة ابن سلّام وردّ قوله عليه، امّا ناصرالدين الأسد فجعل ردّه يبدأ بمعاوية وعصره وعبدالملك والحجّاج وغيرهم، والإستقرار بدأ يضرب أطنابه منذ عهد عثمان الذى بدأ بقتل عمر سنة ٢٣ هـ، فكيف نبحث عن ارجاء الدولة الأموية عن شواهد لتؤكد لنا انّ المسلمين لم يشغلوا عن الشعر فى عهد صدر الإسلام؟ واذا روى ابوبكر وعمر وعثمان والصحابة الشعر فهل معنى ذلك انّ الناس تركت الحروب والفتوح والغنائم والسبايا وانهمكت فى الشعر؟ لقد كان هناك شعر ونستطيع أن نشير اليه فى هذه الفترة باللذات ولكن لم يكن همّ العرب آنذاك. (منير سلطان، ١٩٨٦ م: ٢٩٧)

هذا وابن سلّام دقيق فى ألفاظه ويحاول تحديد المعنى باستخدام الألفاظ المؤدّية له بوضوح وقد استعمل فعل (تشاغل) ولم يقل (امتنع) العرب عن رواية الشعر وقال (لهت) عن الشعر وروايته ولم يقل (حرّموه) على انفسهم.

٣– النتيجة:

- إذا نظرنا إلى ابن سلّام فى إطار عصره لا نطالبه بأكثر ممّا فعل، كما حاول محمد مندور إذ يطلب منه أن يتقدّم بالنقد الفنىّ، هنا سؤال يجب أن يجيبه محمد مندور: على من يتقدّم وهو اوّل من نعرف ممّن حاول دراسة الشعر والشعراء هذه الدراسة المنهجية فى النقد العربى؟ ومع ذلك ومع كلّ ما يحتوى الكتاب من مآخذ فانّ الكتاب قد وضع اللبنات الأولى للنقد المنهجى المبنىّ على أساس علميّة من حيث توجيهه الى تحرير النصوص وتخليص الشعر من الدخيل.
- لم ينل عرض ابن سلّام لقضيّة الشعر الجاهلىّ المصنوع من قبل النقّاد المعاصرين ما وجب أن يناله، لم يتعرّض احمد امين كثيرا لابن سلّام وكذا لانجد دراسة له عند طه الحاجرى، لايوجد فى كتاب مصطفى صادق الرافعى سوى شتائم وقذائف وسباب، ذلك لانّ ابن سلّام أُستخدم وسيلة لتوكيد ادّعاء طه حسين، ما يقوله محمد حسين ليس سوى مجرّد احساسات مؤلّف مسلم حيال كتاب يشعر أنّه سيهزم الدين وهلّم جرا، غير انّ محمد الغمراوى لقد انصاف لابن سلّام ويقدّم منهجه اساسا على عقد مقارنة بين كتاب طبقات الشعراء وكتاب فى الأدب الجاهلى لطه حسين.
- ليس من الإنصاف أن نطالب ابن سلّام أن تكون ملكته الأدبيّة فيما كتب أقوى من ملكته العلمية، كما ليس من المعقول أن ننتظر منه تحليلا فسيحا عميقا يلائم انفساح النقد فى الميادين الأخرى كما طالب منه طه احمد ابراهيم، لأنّ النقد الادبىّ المنهجىّ يومئذ كان يخطو خطواته الاولى.

المصادر والمراجع:

ابن اثير، *الكامل*،ط الأزهرية القاهرة ١٣٠١هـ

ابن حجر العسقلانى، *لسان الميزان*، مطبعة مجلس المعارف النظامية، ١٣٢٩-١٣٣١ هند -حيدرآباد- دكن

ابن رشيق، *العمدة*، ط التجارية، تحقيق محمد محى الدين عبدالحميد، القاهرة،١٩٦٨م

ابن الأنبارى، *نزهة الألباء فى طبقات الأدباء*، طبعة القاهرة ١٢٩٦

ابن نديم، محمد ابن اسحاق، *الفهرست*، ترجمه رضا تجدد، چاپ دوم، چاپخانه بانك بازرگانى ايران

ابن هشام، *السيرة النبوية*، ط الحلبى ١٩٣٦ م

احسان عباس، *تاريخ النقد الأدبى عند العرب*، دارالثقافة بيروت لبنان، الطبعة الرابعة

احمد امين، *النقد الادبى*، الطبعة الثالثة، مكتبة النهضة المصرية ١٩١٣م

احمد امين، *ضحى الاسلام*، ط لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٥٥م

احمد ضيف، *مقدمة لدراسة البلاغة*، الطبعة الاولى، مطبعة السفور بالقاهرة ١٩٢١م

الأسد، ناصرالدين، *مصادر الشعر الجاهلى وقيمتها التاريخية*، الطبعة السابعة دارالمعارف بمصر ١٩٨٨

الإصفهانى، ابوالفرج، *الأغانى*، طبعة دارالثقافة بيروت ١٩٥٨

الأصمعى، *فحولة الشعراء*، المطبعة المنيرة بالقاهرة ١٩٥٣م

بدوى احمد طبانة، *دراسات فى نقد الأدب العربى من الجاهلية الى القرن الثالث*، الطبعة الثالثة، طبعة الرسالة، القاهرة ١٩٦٠م

البغدادى الخطيب، *تاريخ بغداد*، طبعة السعادة، القاهرة، ١٩٣١ هـ

البلاذرى، *فتوح البلدان*، ط ليدن ١٨٦٦م

الجاحظ، *الحيوان*، ط ٣ تحقيق عبدالسلام هارون، دار احياء التراث العربى، بيروت ١٩٦٩م

الجمحى، محمد بن سلام، *طبقات فحول الشعراء*، تحقيق محمود محمد شاكر، ط المدنى ١٩٧٤م

الجمحى، محمد بن سلام، *طبقات الشعراء*، ليدن بريل ١٩١٣م

جورجى زيدان، *تاريخ آداب اللغة العربية*، دارالجيل، بيروت ١٩٨٢

الحاجرى طه، *فى تاريخ النقد والمذاهب الأدبيّة*، طبعة رويال، الإسكندرية، ١٩٥٣ م

حموى، ياقوت، *معجم الأدباء*، تحقيق احمد فريد رفاعى، دارالمأمون، ١٩٣٦ -١٣٥٥

الخضرى الحسين، محمد، *نقض كتاب فى الشعر الجاهلى*، ١٣٥٥هـ

الرافعى، مصطفى صادق، *تحت رأية القرآن*، الطبعة الثامنة، دارالكتاب العربى ١٤٠٣ هـ، ١٩٨٣م

الرافعى، مصطفى صادق، *تاريخ آداب العرب*، طبعة الإستقامة، القاهرة ١٩٤٠م

الزبيدى، *طبقات النحويين واللغويين*، تحقيق محمد ابى الفضل ابراهيم، القاهرة ١٩٥٤م

الزركلى، خيرالدين، *الأعلام*، الطبعة السابعة عشرة، دارالعلم للملايين، بيروت ٢٠٠٧م سعد، محمد

زغلول، *تاريخ النقد الأدبى والبلاغة عند العرب حتى القرن الرابع الهجرى*، منشأة المعارف اسكندرية ٢٠٠٠م

السيوطى، *المزهر فى علوم اللغة وانواعها*، مطبعة السعادة، مصر ١٢٨٥هـ

السيوطى، *الآشباه والنظائر*، ط حيدرآباد الدكن ١٣١٦ هـ

شاكر، محمود محمد، *قضية الشعر الجاهلى عند ابن سلام*، رقم الطبعة ١، مطبعة المدنى ١٩٩٧م

الصفدى، صلاح الدين خليل بن ايبك، *الوافى بالوفيات*، انتشارات جهان، تهران، ١٣٨١ق ١٩٦٢م

الطبرى، *تاريخ الأمم والملوك*، طبعة الحسينية القاهرة، بدون تاريخ

طه احمد ابراهيم، *تاريخ النقد الادبى عند العرب من العصر الجاهلى الى القرن الرابع الهجرى*، الطبعة الاولى، دارالقلم بيروت ١٤٠٨م
العاكوب، عيسى على، *التفكير النقدى عند العرب*، دار الفكر، دمشق سورية، ١٤٢١ هـ عطيّة، محمد هاشم، الأدب العربى وتاريخه، ط العلوم القاهرة ١٩٦١م
الغمراوى، محمد احمد، *النقد التحليلى لكتاب فى الأدب الجاهلى*، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٩٢٩
الفاخورى حنّا، *الجامع فى تاريخ الأدب العربى الأدب القديم*، دار الجيل، بيروت لبنان
المرزبانى، *الموشح*، دار الفكر العربى، قاهرة ١٩٦١م
مندور محمد، *النقد المنهجى عند العرب*، دار نهضة مصر للطباعة والنشر ١٩٩٦م
منير سلطان، *ابن سلام وطبقات الشعراء*، الطبعة الثانية، منشأة المعارف بالإسكندرية، ١٩٨٦م
منيف موسى، *فى الشعر والنقد*، الطبعة الأولى، دارالفكر اللبنانى، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م
وجدى، محمد فريد، *نقد كتاب فى الشعر الجاهلى*، الطبعة الاولى، القاهرة ١٩٣٨ م